

عالم الآثار العراقي الدكتور بهنام أبو الصوف:

ما حدث في المتحف العراقي جريمة إنسانية وتاريخية

أيام 8، 9 و 10 أبريل/ نيسان من العام 2003 كنت واحداً من الأثاريين غير البعيدين عن موقع المتحف العراقي، علماً أنني لم أكن موظفاً في المتحف حينذاك بل مستشاراً للمتحف ودايرة الآثار.. كنت متقاعدًا. أنكر أنني كنت واقفاً قرب السياج الخارجي للمتحف الوطني الذي كان سالمًا لم يمس بعد، وشاهدت إحدى الدبابات الأميركية تقف بين بناية المتحف ووزارة الإسكان.. توجهت إلى الضابط الذي كان يعتلي الدبابة وطلبت منه أن يحركها إلى مدخل المتحف لمنع أية محاولة لدخوله فأجابني أنه لا يملك صلاحية نقل موضع دبابته، فهو في مهمة قتالية وليس في واجب حراسة منشآت أخرى..

■ هذا يعني أنك لم تشهد اللحظة الأولى لدخول المتحف من قبل تلك المجاميع؟

كلا. في اليوم التالي علمنا أن هجوماً وقع على المتحف العراقي وكسرت بعض بواباته واخترقت قاعات العرض كلها فضلاً عن المخازن.. العملية بالنسبة لنا كانت بشعة، والحدث لا يمكن تصوره.. كنا على يقين تام أن العراقيين أنفسهم سوف يحافظون على هذا الكيان التاريخي الهام لبلدهم.. وينبغي أن نذكر أن عدداً من الأثاريين الشباب كانوا هم

حوار أجرته: فردوس العبادي*

ومع الرجل العارف بخبايا اللغة السومرية وكنوز "أكد" و"آشور". ذهب إلى حيث التاريخ القديم، أو ربما قدم هو إلى من خلف أسوار مدن الطين وباب عشتار: لا يهم المهم أنني ما زلت أنظر إليه من دون أن أشيح طرفي بحثاً عن ملامح كلكامش في ملامح وتعابير وجهه وسألته:

■ هل أنا فقط من يظن أنك كلكامش؟

بالطبع لا، فأنا أعتقد أنني كلكامش لكن صاحبي أنكيديو مع الأسف توفي وأقصد الدكتور طارق مظلوم فقد كنا متلازمين كما كلكامش وأنكيديو في الملحمة الخالدة.. رحمه الله.

■ نعود إلى أبريل/ نيسان من العام

2003، ماذا حدث في المتحف الوطني العراقي.. أسألك كواحد من أهم علماء الآثار على مستوى العراق والعالم؟

بعد دخول القوات الأميركية إلى مدينة بغداد

(*) موظفة في قسم الإعلام في بعثة اللجنة الدولية في العراق

... البعض

الآثار والمؤرخ العراقي الدكتور بهنام أبو الصوف، أو عرفه عن كثب لا بد له أن يقرن اسمه بكلكامش صاحب الملحمة الخالدة التي وثقتها كتابات العراقيين القدامى، فقدمت لنا فكرة الغناء والخلود والصراع بينهما من خلال بطلي تلك الملحمة، كلكامش وأنكيديو ورحلتها الطويلة في البحث عن عشبة الخلود. من يجلس قبالة د. بهنام أبو الصوف لا بد أن يعود معه إلى حقب خلت وأقوام رسخت أوتاد حضارات اندثرت، لكن ما بقي منها يشير إلى عظمتها وتأثيرها في التراث الإنساني باعتبارها أولى الحضارات في العالم..

كنت قد التقيت الدكتور بهنام أبو الصوف في بغداد قبل أحداث العام 2003 بعام واحد على الأقل، وكان حديثنا عن التاريخ وحضارة وادي الرافدين وشواهد عظمتها. وبعد مضي سنوات كثيرة على ذلك اللقاء وجدتهني ألتقي بالدكتور أبو الصوف ثانية ولكن هذه المرة في عمان وليس في بغداد، والحديث ما زال هو هو لم يتغير عن تلك الحضارة.. الذي تغير فقط أن شواهد عظمتها المورثة في التاريخ والقدم تعرضت للكثير من التدمير والتخريب بدءاً من سرقة موجودات المتحف الوطني العراقي وتدمير قاعاته، وليس انتهاء باستمرار العبث بالمواقع الأثرية العراقية وسرقة موجوداتها.

ما حدث في المتحف العراقي جريمة إنسانية وتاريخية

الدكتور بهنام أبو الصوف باحث ومؤرخ عراقي. ولد في الموصل بمحافظة نينوى في العام 1931. أكمل دراساته العليا في جامعة كمبريدج في الأعوام 1960-1966 وله اكتشافات أثرية مهمة من بينها، "كنز نمرود" واكتشاف حضارة في "تل الصوان" جنوب سامراء وفي "بلد". شغل د. أبو الصوف منصب مدير عام آثار المنطقة الشمالية لفترة طويلة وكان عضواً في المجلس الوطني العراقي حتى العام 2003. عمل مستشاراً في المتحف الوطني العراقي، ولدائرة الآثار والتراث في العراق حتى العام 2003 وأشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه. لدكتور أبو الصوف ستة كتب فضلاً عن العديد من البحوث والدراسات. ألقى العديد من المحاضرات في الجامعات الأوروبية والأميركية وهو متقاعد عن العمل الوظيفي حالياً.

وكانت هناك قوة عسكرية أميركية تنتشر في جناب المتحف تحقق في ما حدث وتدرسه.. ما كان لافتاً للانتباه أيضاً الفوضى العارمة التي عمّت دائرة الآثار. فقد سرقت المناضد والكراسي والخزانات والأدوات الهندسية التي كان يستخدمها الآثاريون في عملهم وبقيت هذه الفوضى لأيام عدة.

■ كم هو عدد القطع الأثرية المسروقة من المتحف بحسب علمكم؟

علمت من بعض زملائي العاملين في دوائر المتحف والآثار أن ما سرق من مخازن المتحف وقاعاته يتجاوز الأربعة آلاف قطعة أثرية.. لكن الذي أعلمه أن الموثق والمسجل في المتحف هو مائتا ألف قطعة، منها ما هو معروض ومنها ما هو مخزون..

■ وهل ثمة جهود جادة بذلت لإعادة ما نهب من كنوز من المتحف العراقي؟

بعد أشهر أعقبت الحادث، أصدرت القوات الأميركية والبريطانية قرارات حذرت بموجبها منتسبيها من نقل أو التعامل بآثار العراق المسروقة، ومنعت دخول الآثار العراقية لبلدانها وأبلغت كذلك الدول الأوروبية بهذا القرار.

كما تالفت لجنة في الولايات المتحدة الأميركية من آثاريين من الجامعات والمتاحف الأثرية الأميركية غرضها التقصي عما يرد للبلاد من قطع أثرية عراقية مسروقة، ومن أبرز الأسماء التي عملت وتعمل في هذا المضمار زميلنا الأستاذ الدكتور مغواير غيبس أسنان علم الآثار الشرقي في جامعة شيكاغو..

■ هل حققت جهود تلك اللجنة نجاحاً ما؟

نعم. لقد تكلفت مجهودات هذه اللجنة خلال السنوات الماضية ببعض النجاح وأعدت عدداً من القطع الأثرية إلى المتحف. ويجب أن أذكر بكل تقدير ما قامت وتقوم به حكومة الأردن من جهود في هذا المجال، وكذلك حكومتا المملكة العربية السعودية والجمهورية العربية السورية وجهودهما المبدولة أيضاً في إعادة القطع الأثرية للعراق.

■ مدينة بابل الأثرية أصابها الكثير من الدمار نتيجة اتخاذها قاعدة عسكرية للقوات الأميركية، ما حجم التدمير الذي أصاب هذه المدينة التاريخية من وجهة نظرك كأثري؟

من المعروف أن مدينة بابل ليست فقط عاصمة العراق القديم في زمن حمورابي في ●●●

بلدهم وكنوزهم.. هذه الخطوة تبعثها خطوات أخرى حيث استجاب كثيرون للنداءات العديدة التي أطلقت من أجل إرجاع القطع الأثرية المسروقة إلى المتحف.. وبعض القطع أعيدت أيضاً بعد تفتيش دور بعض المشتبه فيهم وكان مثبتاً على تلك القطع إشارة ورقم المتحف العراقي..

■ دكتور بهنام هل لي أن أسأل، لماذا كان المتحف العراقي مستهدفاً؟

يتراءى لي أن ما حصل لم يكن فقط "فورة فجائية" من بعض العراقيين الذين أخذوا بعد الاحتلال بمهاجمة كثير من مؤسسات ومنشآت الدولة والحكومة، بل إنه في الواقع، كما رأيت في حينه، ثمة رغبة في إيذاء العراقيين؛ وبالذات المتحف العراقي من قبل جهة أو جهات تضمم العدا للشيء العراقي.

■ بعد الهجوم على المتحف وسرقة وتدمير موجوداته، من المؤكد أنك كنت بحاجة لتكون في الموقع، كيف وجدت المتحف بعد الحادث؟

بعد يوم مما حدث ذهبت برفقة بعض زملائي المستشارين والآثاريين لزيارة المتحف والاطلاع على ما حصل له، فوجدت القاعات في حالة لا تصدق من الفوضى،

من يقوم بمهمة الحراسة داخل المتحف، وهو أمر يسجل لهم ويؤكد على اعتزازهم بأهمية هذا الصرح الكبير الذين عملوا بجهد للحفاظ عليه.

■ ما الذي سرق بالضبط من المتحف الوطني العراقي؟

سُرقت قطع أساسية ونادرة مع الأسف من القاعات السومرية والآشورية، وتم فتح خزانات كثيرة من قاعات أخرى، وأخذت الأختام الأسطوانية والأواني الفخارية ومختلف القطع من الطين والحجر والرقم، الطينية المدونة بالخط المسماري من مخازن أبنية المتحف.. من حسن الحظ أن الذي استولى على أربع قطع نفيسة ونادرة من القاعة السومرية والآشورية هم شباب من بغداد قاموا بإعادتها بعد أقل من عشرة أيام. وتعد تلك القطع مفخرة المتحف العراقي بسبب قدمها وندرتها، كالإلهة النذري للألهة عشتار ورأس الفتاة السومرية من حجر المرمر الأبيض من مدينة الوركاء، إضافة إلى ما يعتقد أنه رأس الملك سرجون الأكدي.

■ هل طمانتكم إعادتها؟

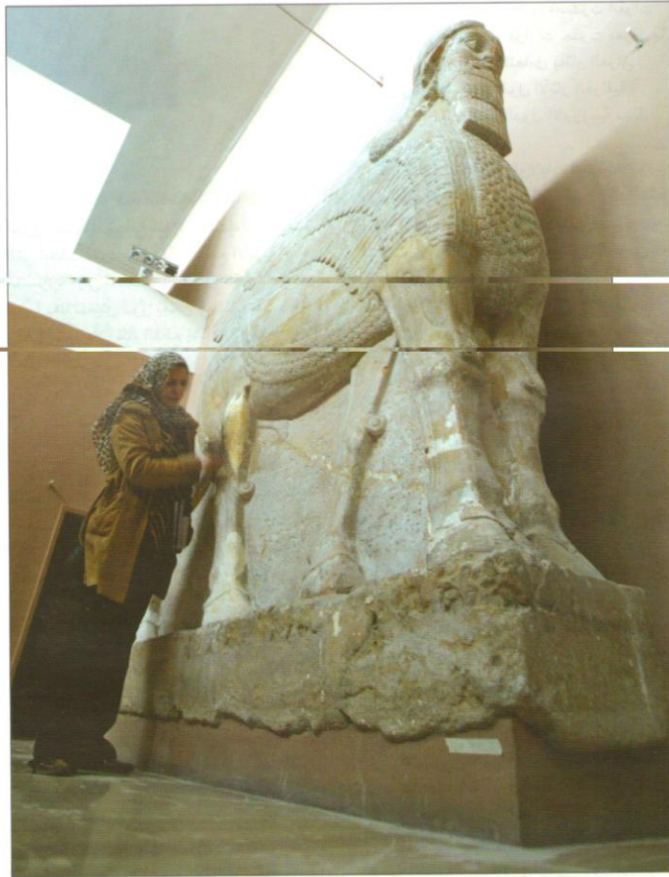
بالتأكيد.. أفرحنا ذلك كثيراً وأكد لنا أن العراقيين الحقيقيين حريصون على تاريخ



●●● مطلع الألف الثاني قبل الميلاد، لكنها كانت أيضاً عاصمة نبوخذ نصر في المائة السادسة قبل الميلاد، بل وعاصمة العالم القديم في زمنه.. وهي ازدهرت بعمارتها ومعابدها وبرجها المدرج ومعاهدها العلمية التي تعلوها قباب استنطاق الأبراج والأفلاك لمعرفة حركة ومسيرة الكواكب والقمر.. ومن المعروف أن سبب اندثار معظم أقسام بابل التاريخية في زمن حمورابي هو طغيان طبقة المياه الجوفية عليها من نهر الفرات المجازي لها، كما تهدمت معظم مبانيها الشامخة والمشهورة في زمن نبوخذ نصر بسبب الحروب والغزوات التي اجتاحتها في العصر القديم.. وفي أواخر القرن العشرين وضعت الدولة العراقية، وبمعاونة الأجهزة الأثرية المتخصصة، مشاريع طموحة وخصصت

مبالغ كبيرة لإحياء المدينة التاريخية من خلال صيانتها وترميم عدد من قصورها ومبانيها ومعابدها ومسارحها القديمة.. لكن من المؤسف أن تتخذ القوات الأميركية، خاصة بعد العام 2003، من العاصمة البابلية مقراً لها وتكون واحدة من قواعدها العسكرية، لتضع فيها الدبابات والشاحنات المحملة بالعتاد الثقيل. كما قامت القوات الأميركية بحفر الخنادق لأغراض دفاعية على أرض مدينة بابل، ويكفي أن تسير المعدات العسكرية رواقاً ومجيباً في اليوم الواحد أكثر من مرة ليعمل ذلك على تحطيم بنيتها التحتية، وما تبطنه أرض بابل من الأسوار والمباني التاريخية من عهد نبوخذ نصر التي لم يكشف عنها بعد.

موظفة في المتحف العراقي تقف بجوار تمثال آشوري مع بدء أعمال ترميم الآثار الأشورية والإسلامية في العام 2008.



■ ماذا كان رأي منظمة اليونسكو في الأمر؟

المؤلم في الأمر أن مسير الأليات العسكرية جوار المعابد والقصور القائمة أدى إلى تفكك حتى المباني المرمتة والمصانة.. هذه الحال بقيت حتى أواخر العام 2008 حيث أعيدت المدينة إلى الجهات الأثرية.. وتدخلت اليونسكو من خلال الدراسة التي قدمتها حول ما أصاب المدينة من جراء إقامة قاعدة عسكرية فيها.. وهي تعمل، كما منظمات أخرى، الآن بجهد كبير على وضع التدابير اللازمة لتقوية وترميم ما تأثر من المدينة الأثرية.

■ كيف تصف الذي حدث للمتحف العراقي والآثار العراقية بنحو عام؟

ما حدث في المتحف العراقي هو جريمة إنسانية وتاريخية وقومية كبيرة، إذ أن ما يحويه هذا المتحف العالمي الشهير من بقايا أثرية تاريخية ليس ملكاً للعراق فقط، بل هو ملك للامة وللإنسانية جمعاء.. لذا أدعو الأوساط الأثرية وأهيب بالعاملين فيها أن تتضافر جهودهم للبحث وإعادة ما سرق إلى موطنه الأصلي العراق.

■ أخيراً، ماذا تقترح في ما يخص الحد من ظاهرة سرقة الآثار أو تهريبها؟

منذ النصف الثاني للقرن العشرين عملت الدوائر الأثرية المختصة على وضع تشريعات وتنفيذات صارمة، لكننا بمسئولية المباني والمواقع التاريخية، بل إنها كانت تمنع التجاوز وتقوم بحماية المدن المندرسة والمواقع السومرية والبابلية من الحفر غير المشروع والسرقة.. وقد وضعت عقوبات نافذة على المتجاوزين على الآثار وسارقها.. وفي الوقت نفسه خصصت الدولة أواخر القرن العشرين مبالغ ضخمة لتكريم من يقدم قطعاً أثرية للمتحف أو يخبر عن وجودها. مثل هذه التدابير والإجراءات عملت على إنهاء السرقة تماماً.. لكن ما حدث بعد العام 2003 من أوضاع أمنية غير طبيعية وضياح للكثير من القيم الاجتماعية والأخلاقية أعادت ظاهرة سرقة الآثار لتبرز من جديد رغم كل التدابير التي تتخذها الجهات الأثرية.. ما أدعو له، ولكي نضع الأمور في نصابها هو استحداث مديرية جديدة باسم شرطة الآثار أسوة بأجهزة شرطة الجمارك، والنفط والغاز، تزود بالآليات والسيارات المسلحة وتعطى الصلاحيات في كل أنحاء العراق لتجوب مواطن الآثار في الجنوب والوسط والشمال.. وإمكانات العراق المادية الحالية تسمح بذلك ■